

أ: رمادية أمال

جامعة عنابة

جوانب من الحياة الاقتصادية لمدينة الجزائر خلال العهد العثماني

مقدمة:

قبل البداية عن الحديث عن التواجد العثماني بالجزائر لابد ان نعطي لمحة عن تاريخ الدولة العثمانية ومؤسس هذه الدولة و المتمثل في " أرطغرل بن سليمان شاه التركماني" قائد إحدى قبائل الترك النازحين من سهول آسيا الغربية إلى بلاد آسيا الصغرى ، يذكر انه كان راجعا إلى بلاد العجم بعد موت أبيه غرقا عند اجتيازه أحد الأنهار، فشاهد جيشين متشابهين فوقف على مرتفع من الأرض ليمتع نظره بهذا المنظر المألوف لدى الرحل من القبائل الحربية، و لما انس الضعف من أحد الجيشين و تحقق انكساره و خذلانه إن لم يمد إليه يد المساعدة، فدبت فيه النخوة الحربية فنزل هو و فرسانه مسرعين لنجده و هاجم الجيش الثاني بقوة و شجاعة حتى وقع الرعب في قلوب الذين كادوا يفوزون بالنصر، و بعد تمام النصر علم "أرطغرل" بان الله قد قيضه لنجدة الأمير "علاء الدين" سلطان قونية إحدى الإمارات السلجوقية التي تأسست عقب انحلال دولة آل سلجوق بموت السلطان " ملك شاه "(485هـ/1092م)، فكافأه "علاء الدين" على مساعدته له بإقطاعه عدة أقاليم و مدن، و صار لا يعتمد في حروبه مع مجاوريه إلا عليه و على رجاله و عقب كل انتصار يقطعه أراضي جديدة و يمنحه أموال جزية¹.

محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: دكتور إحسان حقي، ط1، دار

النفايس، بيروت، 1981، ص 115.¹

لما توفي "أرطغرل" سنة (687هـ/1288م) عين الملك "علاء الدين" أكبر أولاده مكانه و هو السلطان "عثمان" الذي يعتبر مؤسس الدولة العثمانية¹، و لم يلبث "عثمان" أن حصل على امتيازات جديدة عقب فتحه قلعة " قره حصار" سنة (688هـ/1289م)، فمنحه الملك لقب "بك" و اقطعه كافة الأراضي و القلاع التي فتحها و أجاز له بضرب العملة و أن يذكر اسمه في خطبة الجمعة، و بذلك صار "عثمان بك" ملكا بالفعل ولا ينقصه إلا اللقب².

أبدى هذا السلطان اهتماما عميقا بدعم الجيش و تنظيم الحكومة، فتمتع بشهرة عريضة بين معاصريه من أمراء و اعتبر المؤسس الأول للدولة العثمانية، فسميت باسمه الدولة و الأمة و سرعان ما تمت هذه الإمارة حتى أصبحت الإمبراطورية مترامية الأطراف امتدت أقاليمها و ولاياتها في آسيا و أوروبا و إفريقيا، و غدت من أكبر الدول الإسلامية التي شهدها التاريخ³.

بعد أن توفي "عثمان" سنة (767هـ/1365م) قضاها في تأسيس قواعد الدولة تقلد الحكم من بعده ابنه "أورخان" لما يتصف به من علو و هممة، ففرغ للفتوحات و نشر الراية العثمانية في كل منطقة وصلت إليها أقدامه، و من أعماله أنه نقل الحكومة إلى مدينة "بورصة" لحسن موقعها، و أرسل جيشه لفتح ما بقي من بلاد آسيا الصغرى ففتحوا أهم مدنها، كما انتشر العمران في البلاد و فتح المدارس و

¹ إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، المعروف بكتاب "التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية"، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 1988، ص21. انظر أيضا: زياد أبو غنيمه، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك، ط1، دار الفرقان للنشر و التوزيع، عمان 1983.

محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص118.²

³ عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة

1980، ص40.

قام ببناء الجوامع و التكايا، و من آثاره انه أسس مدرسة عالية في مدينة "بورصة" و أخرى في مدينة "ازنيك".¹

توفي أورخان الغازي بعد أن أيد الدولة بفتوحاته و تنظيماته المفيدة، تولى بعده ابنه السلطان "مراد الأول" و كانت فاتحة أعماله احتلال مدينة "أنقرة" مقر سلطنة القرمآن، كما سعى للتوسع في الأناضول ففتح العديد من المدن، بعدها توفي سنة (791هـ/1388م) و تولى بعده السلطة ابنه السلطان "بايزيد" الذي احتل باقي أراضي الأناضول و صارت تابعة للدولة العثمانية انتهت فترة حكمه بأخزاه في إحدى المعارك بأنقرة، حيث وقع أسيرا في أيدي المغول حتى توفي سنة (805هـ/1403م) و بعد موته تجزأت الدولة إلى عدة إمارات صغيرة²، و في هذه المرحلة حكم العديد من السلاطين من أبرزهم : مراد الثاني، محمد الفاتح ، بايزيد الثاني ، سليم الأول، سليمان القانوني، سليم الثاني.

تعتبر فترة السلطان "محمد الفاتح" من أهم الفترات، حيث قام بفتح القسطنطينية عام 1453م عاصمة الدولة البيزنطية و اتخذها عاصمة لدولته، كما أعطى لها اسما جديدا و هو "استانبول" و معناه "دار الإسلام"³، و زاد عليها ففتح مملكة طرابزون الرومية و الصرب و ألبانيا و جميع أقاليم آسيا الصغرى، و لم يبق في بلاد البلقان إلا مدينة بلغراد التابعة للمجر.

كانت مهارة هذا السلطان في الأعمال المدنية تعادل خبرته في الأعمال الحربية، فإليه ينسب ترتيب الحكومة العثمانية و تسميتها بالباب العالي و تنظيمها إلى أربعة أركان: الوزير و قاضي العسكر و الدفتردار المسؤول على الشؤون المالية للدولة، و نيشانجي و هو كاتب سر السلطان، كما وضع أول مبادئ القانون المدني

محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 124. ¹

نفسه، ص 147. ²

عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص 13. ³

و قانون العقوبات، من أعماله أيضا بناء العديد من الجوامع في القسطنطينية و إنشاء العديد من المدارس الابتدائية و المدارس العليا¹.

بعد وفاة "محمد الفاتح" (851هـ/1447م) تسلم الحكم من بعده ابنه "بايزيد الثاني" الذي عرف بميله إلى السلم أكثر منه إلى الحروب محبا للعلوم الأدبية، و لذلك سماه بعض المؤرخين الأتراك بـ "بايزيد الصوفي"، لكن سياسة الدولة دعتة إلى ترك الحياة السلمية و الاشتغال بالحرب، فكانت أول حروبه الداخلية مع أخيه حيث كان لـ "محمد الفاتح" ثمانية ذكور فنشبت الحروب بينهم من أجل السلطة مما اثر على أوضاع الدولة، ضف إلى ذلك حبه للسلم فكانت حروبه الخارجية اضطرارية للمدافعة عن حدود الدولة حتى لا يستخف به أعدائه، فطلبت منه الجيوش الانكشارية بترك منصبه إلى ابنه السلطان "سليم الأول" فوافق هذا الأخير و قدم استقالته.

تقلد السلطان "سليم الأول" الحكم و استولى على الكثير من بلاد أرمينية الغربية و ما بين النهرين و تبليس و ديار بكر و جميع الأراضي الجنوبية، كما خضعت له أراضي الشام و مصر و الحجاز بعدها أجزاء من اليمن، فزاد عدد الرعايا المسلمين و أصبح البحر الأحمر بحيرة عثمانية تقريبا، و منذ ان حكم السلطان "سليم الأول" الأماكن المقدسة و على رأسها المسجد الحرام أضفى على الدولة زعامة دينية في العالم الإسلامي، فأضيف إلى ألقاب كل سلطان عثماني من سلاطين الدولة لقب "حامي حمى الحرمين الشريفين" تأكيدا للزعامة الدينية للدولة في العالم الإسلامي²، و لم يقف عند هذا الحد بل امتد نفوذ الجيش العثماني إلى شمال إفريقيا و أبعد الأطماع الأوروبية و فرض الحماية على الحوض المتوسط، كما انشأ ثلاث دويلات المتمثلة في الجزائر، تونس، طرابلس و على هذا النحو اتسع نطاق الوجود العثماني في العالم

محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 177-178.¹

عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص 19-20.²

العربي من الجزائر غربا إلى الخليج العربي شرقا ، و من حلب شمالا إلى خليج عدن و بحر العرب جنوبا¹.

بعد موت السلطان "سليم الأول" تقلد الحكم ابنه السلطان "سليمان" الذي يعتبر عاشر ملوك آل عثمان ، في عهده تحولت الدولة العثمانية إلى قوة عالمية و ذلك بفضل النجاحات المتتالية في الآفاق الواسعة²، حيث تعتبر فترة حكمه العصر الذهبي للدولة ففيها بلغت أوج قوتها من نفوذ دولي و قوة حربية و توسع إقليمي، و بهذا يكون العصر الأول من الدولة العثمانية قد انتهى مليئا بالانتصارات التي حققتها على يد "محمد الفاتح" و "سليمان القانوني" و "سليم الأول".

يبدأ العصر الثاني من الدولة العثمانية بتولي الحكم عدد من السلاطين، تميزت هذه الفترة بتوجه الدولة نحو الانحدار و الضعف و الانحطاط، و أخذت تفقد شيئا فشيئا ممتلكاتها في القارات الثلاث³، خاصة عندما تحول الجيش الانكشاري إلى الحكم مما ساهم في إضعافها و إتاحة الفرصة و المجال للدول الأوروبية بتدخل في شؤونها و التصارع فيما بينها لتتقاسم ممتلكاتها في القارات الثلاث و باختصار كانت نهاية الدولة العثمانية⁴.

2- التواجد العثماني بالجزائر

عرفت أراضي شمال إفريقيا خلال المراحل التاريخية أقواما متعددة الجنسيات محاولة منها الاستقرار فيها فضعفت قدراتها الدفاعية و هذا ما جعلها مسرحا للتنافس عليها، هذا الضعف و الانحلال الذي شهدته مناطق المغرب الأوسط عرضها لحملات استيطانية من قبل البرتغاليين و الأسبان.

¹ عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص 24.

² خليل اينالجيك، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الارناؤوط، ط2، دار المدار الإسلامي، بيروت 2002، ص 9.

³ عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، ص 28.

⁴ خليل اينالجيك، المرجع السابق، ص 188.

مع بداية القرن 16 م بدأ المغرب صراعه مع الاسبان و استمر هذا الصراع قرونا فكان في اعتقاد الاسبان أنهم سيتمكنون من إخضاع كافة المغرب لسيطرتهم، لكن توزع مشاغلهم باتجاه القارة الأوروبية و ظهور الإخوة بربوس جعلهم يصابون بخيبة أمل كبيرة¹.

كان الإخوة بربوس "عروج و الياس و خير الدين" المعروفين باللحية الشقراء يشتغلان بالقرصنة ببحر الروم، بعد استسلامهم دخلوا في خدمة السلطان "محمد الحفصي" بتونس، و استمروا في اسر مراكب المسيحيين التجارية و اخذ كافة ما فيها من بضائع و بيع ركابها و ملاحيتها بصفة رقيق²، في تلك الأثناء كانت سواحل المغرب الأوسط مهددة من طرف الاسبان بعد ضعف الدولة الزيانية ، فانتهاز الاسبان ضعف المسلمين و تفرقهم خاصة بعد سقوط الأندلس في أيديهم و استيلائهم على مدينة غرناطة ومنع سكانها من التمتع بحقوقهم كمسلمين و إرغامهم على اعتناق المسيحية إكراها، فأجبر الكثير منهم بالفرار من اضطهاد الاسبان فاشتدت الهجرات نحو المغرب الإسلامي و استقرار الكثير منهم في بعض المواقع الساحلية مثل الجزائر، وهران و بجاية، فوهب الكثير منهم حياتهم للجهاد في سبيل الله و الانتقام من أولئك الذين قضوا على وطنهم و ظلموا أمتهم، و لما كان البحر يهياً لهم هذه الفرصة خاصة و أن شواطئ المغرب معروفة بطبيعتها الوعرة و ثغورها و مراسيها و خلجانها الكثيرة التي تحميها الصخور العالية فكانت أصلح ملاذ لمشاريع أولئك البحارة المجاهدين و القرصنة، و أصبحت مياه الجزائر و بجاية و تونس أفضل

¹عزيز سامح أتر، الأتراك العثمانيين في إفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود على عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت 1989، ص 18.

² محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 230.

مواقع للرسو و الإقلاع ، فكانت غاراتهم على الشواطئ الاسبانية و لا سيما في المياه الجنوبية تتجدد بلا انقطاع و تنجح في معظم الأحيان في تحقيق غاياتها¹. إن الاسبان الذين قضوا على آخر معقل من معاقل المسلمين في الأندلس ، سولت لهم أنفسهم أنهم باستيلائهم على المغرب الإسلامي سيتمكنون من إعادة النصرانية ، لكن في تلك الفترة شهدت أوروبا العديد من الخسائر لم يسبق لها نظير أنجزت من طرف الإخوة بربروس و هم يرفعون راية الإسلام و يجاهدون لإعلانها و التصدي للموجة الصليبية، لم يكن الأخوين "عروج و خير الدين" بعيدين عن مسيرة الأحداث و تطورها أثناء إقامتهما ب "حلق الوادي" بتونس، و بزيادة مضايقة المسيحيين للمسلمين في الأندلس اشتدت الحمية لدى الإخوة فبادروا بدعم و مساعدة المسلمين و تركيزهم بالمدن الساحلية.

في الوقت ذاته كانت أخبار الأخوين تتردد بقوة وسط الأندلسيين النازحين إلى المغرب الأوسط فذاع صيتهم ، و انتشرت أخبار انتصاراتهم على الأعداء فقام السكان باتصال بالأخوين طالبين منهم التدخل و التعاون لنصرة الدين، فشكلت مجموعة من علماء و أعيان بجاية وفدا لمقابلة "عروج" و فعلا قبل النداء و تعاون السكان معه، فجرت معركة قاسية نجح فيها الأخوين بالاستيلاء على السفن الاسبانية و إغراق أخرى فيما لاذت بقية قطع الأسطول بالفرار²، فكانت هذه العملية إنذارا للاسبان فاقتنعوا أن تلاحم القوى في البر و البحر يؤدي إلى تعاضم قوة المسلمين فقاموا بطلب الدعم من اسبانيا، و من خلال تجربة عروج الاستطلاعية لمنطقة بجاية عرف انه من المحال محاصرتها و خوض معركة طويلة ضدها و هو في قاعدته بتونس، فقرر فتح جيغل التي لا تبعد عن بجاية و تحريرها من قبضة الأعداء و

بسام العسيلي، خير الدين بربروس و الجهاد في البحر (1470-1547م)، ط1، دار

النفايس، بيروت، 1980، ص 81.¹

نفسه ، ص 82-87.²

اتخاذها قاعدة للعمليات المقبلة ، و قد كانت هذه الأخيرة خاضعة لحماية ايطالية (جنوه) فاستنجد أهل جيجل ب "عروج" و أعلنوا له استعدادهم لدعمه بكل ما يستطيعون، و بعد معركة عنيفة قام بها "عروج" تمكن السكان من اقتحام المدينة و إبادة حاميتها ، فتمكن هذا الأخير من تحقيق هدف مزدوج فقد استطاع من جهة طرد الأعداء و من جهة أخرى حصل على قاعدة صلبة و مؤمنة تمكن له من الانطلاق لتطوير أعماله القتالية¹.

لما كثرت الصعوبات في الجهاد و نقص العدة و الأسلحة ، قام "عروج" بإرسال هدية إلى السلطان "سليم" الذي كان حاكما في تلك الفترة و معها رسالة يشرح له ما يتعرض إليه من صعوبات فقبل السلطان الهدية ، و أرسل إليه 14 سفينة محملة بالرجال مع كميات من الأسلحة و الذخيرة و التجهيزات، و عندما كان "عروج" في طريقه للتحرك نحو بجاية لتحريرها وصل إليه وفد من الجزائر يطلب الاستغاثة من الخطر الاسباني الذي كان يهددهم باستمرار و ذلك عن طرق "حصن البنيون" الذي بنوه، فلبى "عروج" طلب أهل المدينة و معه قوة بحرية و توجه إلى مدينة شرشال (922هـ/1516م) و قام بطرد الاسبان منها².

رجع "عروج" إلى مدينة الجزائر حيث اجتمع مع زعمائها و أصحاب الرأي و قرروا أن يسندوا له واجب "أمير الجهاد"، و في تلك الفترة كان يحكم الجزائر "سليم تومي" الذي كان وراء إقامة حصن البنيون الذي وضع به الاسبان أقدامهم في الجزائر، فحس أنه لم يعد القوة الأساسية فدبر له مكيدة مما أثار أعيان البلد ضده، فاستطاع "عروج" بعدها السيطرة على الوضع و ذلك بقتل "سليم تومي" بتهمة الخيانة و نصّب نفسه حاكما على المدينة، أخذ "عروج" يتوسع في البلاد فأعاد تنظيم الإقليم

¹ بسام العسيلي، المرجع السابق، ص 87-89.

² كوين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541م)، ترجمة: جمال

حمادة، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 26.

فقسمه إلى قسمين: مقاطعة شرقية تولى "خير الدين" إدارتها، و مقاطعة غربية تولى إدارتها بنفسه و مركزها الإداري مدينة الجزائر¹، لم يكد "عروج" ينتهي من تنظيم أموره حتى وفد عليه أهل تلمسان، يستنجدون به لإنقاذهم من الصراعات و حالة الفوضى و الاضطرابات التي مالت إليها المدينة من جراء سلطاهم الزياني "أبو حمو الثالث" الذي زاد عسفه باعتماده على الاسبان الذين أعادوا تنصيبه على عرش تلمسان، و أعانوه على الحاكم "أبي زيان" الذي تم إيداعه السجن بعد انتصار "أبو حمو الثالث"²، فأبرزت مسيرة الأحداث أن المنطقة الغربية هي الأكثر خطورة و أن مصدر التهديد لم يعد متمثل في القوات الاسبانية فحسب ، و إنما أضيف إليها خطر الحكام الزيانيين الذين ربطوا سلطتهم و قوتهم بالاحتلال الاسباني.

ما أن تم "عروج" استعداده حتى اندفع إلى تلمسان فنظم قواته و جيشه و انطلق بها من قلعة المشور، حيث اتجه نحو الغرب عبر ممرات ضيقة تؤدي إلى الساحل، و عندما وصل إلى جبال "بني سناسن" أحاطت به قوة اسبانية فدارت مذبحه ضارية في ظروف غير متكافئة و فيه تم القضاء على كل رجاله ووقف عروج وجها لوجه أمام خصمه ، و استمرت المباراة بينهما حتى سقط الاثنان بضررتين قاتلتين³.

استشهد عروج في المعركة فمضى الاسبان في فرحتهم و خيم الحزن و الأسى على مدينة الجزائر، بعدها قرر أهلها أن يسندوا إلى "خير الدين" واجب إمارة الجهاد بعد أخيه، و بعد إلحاحهم الشديد قبل "خير الدين" الإمارة بشرط التعاون مع الدولة العثمانية و حاكمها "سليم خان" و لن يتم ذلك إلا ببيعته و الدخول في طاعته و الدعاء له في الخطب على المنابر و ضرب السكة باسمه ، فقبل المشايخ و الزعماء

عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، دار الثقافة 1984، ص 38. ¹

بسام العسيلي، المرجع السابق، ص 101. ²

بسام العسيلي، المرجع السابق، ص 106-108. ³

بتلك الشروط ووافق "خير الدين" على البقاء مؤقتا حتى يتخذ السلطان العثماني قراره فيما عرضه عليه أهل الجزائر، و يمددهم بما طلبوه من دعم عن طريق الوفد الجزائري الذي رحل إلى القاهرة لمقابلة السلطان "سليم" ، فأعلمهم بموافقتهم على أن تكون مدينة الجزائر مشتركة مع الدولة العثمانية في الجهاد ضد المسيحية.

منح السلطان "سليم" لقب "بيلرباي" أي باي البايات إلى "خير الدين" حيث جعله قائدا أعلى للقوات المسلحة ممثلا للسلطان، فأصبحت الجزائر تابعة رسميا تحت راية الدولة العثمانية و أي اعتداء عليها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية بأكملها، عمل السلطان مباشرة على إرسال دعم إلى الجزائر يتكون من قوة بحرية محملة بالمقاتلين الأتراك و كميات ضخمة من الأسلحة و الذخائر و التجهيزات الحربية، فبدأت القوات باستعدادها لمواجهة الأعمال العدوانية المتوقعة و أول انتصار حققه "خير الدين" هو تحرير حصن البنيون من الاسبان، و بعدها توجه إلى الإمبراطورية العثمانية و خلفه نائبه "محمد حسن أغا" ، الذي تلقى فيما بعد لقب "الباشا" مكافأة له على ما قدمه من جهد و تضحية و ما أظهره من كفاءة في إدارته للبلاد و إحباطه للهجمات الصليبية¹.

3- نظرة تاريخية عن مدينة الجزائر

1.3- مدينة الجزائر:

تقع مدينة الجزائر على خط عرض 36.47° شمالا و خط طول 3.03° إلى الشرق من خط غرينتش² وبالتالي تقع في إقليم وسط البلاد جناحها الغربي الإقليم الوهراني، وجناحها الشرقي الإقليم القسنطيني ، هي مدينة مبنية على شاطئ البحر على قاعدة واسعة نسبيا في شكل نصف دائرة على هضبة سريعة الانحدار.

¹ بسام العسيلي، المرجع السابق، ص 162.

² Shaw(T.), Voyage dans la régence d'Alger, Paris, p.288

عرفت أثناء الاحتلال الروماني باسم "ايكوزيوم" ، ووردت في كتب الرحالة أمثال "البكري" حيث يقول : " ... وكانت بمدينة بني مزغنة كنيسة عظيمة بقي منها سوى جدار من الشرق إلى الغرب..."¹، بعدها مرت عليها فترات من حكم الو ندال و البربر وفي سنة 339هـ / 948م² أسست مدينة الجزائر من طرف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي* حيث أعاد تخطيطها على أنقاض المدينة الرومانية القديمة³ كما ذكر ابن خلدون بقوله : " ... ثم اختط ابنه بلكين (أي ابن زيري بن مناد) وعلى عهده كانت مدينة الجزائر المنسوبة إلى بني مزغنة في ساحل البحر"⁴، بلغت مدينة الجزائر درجة معينة من الرخاء إذ ازدهرت التجارة و زاد عدد سكانها و ازدادت أهميتها.

بعدها مرت عليها فترات من الحكم، فخضعت تارة إلى الزيانيين و تارة أخرى إلى الحفصيين⁵، و أصبحت تنمو و تتزايد حتى استولت عليها قبيلة الثعالبة و سكنتها، تولى حكمها "سليم تومي" وقد ذكرها "حسن الوزان" في كتابه "وصف إفريقيا" بقوله : " مدينة الجزائر كبيرة جدا تضم نحو 4000 كانون، أسوارها رائعة و

¹ عبيد الله البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، المأخوذ من كتاب المسالك والممالك، عمان، 1911، ص 99.

* هو بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي من ملوك قبيلة صنهاجة التي ملكت المغرب الشرقي والمغرب الأوسط في القرنين (4-6هـ/16-12م).

² رابح بونار ، " مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية " ، مجلة الأصالة، العدد8، الجزائر1972، ص106.

³ كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 9.

⁴ عبد الرّحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج6، بيروت، 1992، ص 181.

محمد العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق: احمد بن جدو ، مطبعة البعث، الجزائر 1974، ص 23.⁵

متينة جدا، مبنية بالحجر الضخم، فيها دور جميلة وأسواق منسقة كما يجب، لكل حرفة مكانها الخاص و فيها عدد كثير من الفنادق و الحمامات...¹.

بعدها أصاب الدولة الزيانية من ضعف وذلك بانشغال الحكام بأمرهم و مصالحهم الخاصة ما شجع و ساعد الاسبان على شل حملات على طول السواحل الجزائرية كمدينة هنين و وهران في الغرب الجزائري، و جيجل و بجاية في الشرق الجزائري و احتلوا الجزائر و أسسوا حصنا على إحدى صخورها المسمى ب "البنين"² سنة 916هـ / 1510م، و بإقامة هذا الحصن أصبح الإسبان يهددون المدينة فعملوا على منع السكان من ممارسة نشاطاتهم المختلفة خاصة النشاط التجاري مكبدا الأهالي خسائر في الأموال ناهيك عن الذل و الإهانة والاحتقار التي مارسه إسبانيا عليهم .

في الوقت الذي كان فيه الإسبان يغزون الشواطئ الجزائرية، أي مطلع القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي كانت طلائع المحاربين العثمانيين متمثلة في الأخوة عروج و خير الدين بربروس قد وصلوا إلى الحوض الغربي للمتوسط، ملحقين بالسفن و الشواطئ المسيحية خسائر كبيرة ، متخذين من الموانئ التونسية التي أذن لهم السلطان الحفصي باتخاذها مقرا لهم مقابل اقتسام الغنائم و مد يد العون، فذاع صيتهم و ترددت انتصاراتهم في البحر الأبيض المتوسط³، و انتشرت أخبار بطولاتهم في الغزو البحري، و بلغت أسماع الجزائريين فتوجهت إليهم الأنظار، فقام أهل المدينة

¹ حسن الوزان ، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية: محمد دحي و محمد الأخضر، ج1، ط2 ، بيروت 1983 ص37.

² عبد العزيز لعرج، مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر، در، المؤتمر الخامس لجمعية الاثاريين العرب، القاهرة 2002، ص564.

Ernest les roux De Grammont, histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830),

³ éditeur ,paris 1887,p 21.

باستدعاء أول قوة إسلامية أحسوا بأنهم يمكن أن يحققوا من خلالها هدفهم في طرد الإسبان وإزالة الحكام الزبانيين المتعاونين معهم¹.

فعلا تم الاتصال بالأخوين عروج و خير الدين بربوس للتخلص من الخطر الإسباني المهدق بهم و تحرير ما وقع في يد الإسبان²، لأنهم على علم بقدرتهم على مواجهة الجيوش المسيحية و ذلك بسبب ضعفهم و صراعاتهم الداخلية، و توالى هذه المهمة مدينتي جيحل و بجاية و باجتماع السكان و تطوعهم إلى الجهاد تمكنوا من إبعاد الإسبان بعد أن شهدت مناطق مختلفة من الجزائر معارك دامية قتل فيها العديد من الجنود و في مقدمتهم "عروج".

بعد مقتل عروج استلم أخوه خير الدين زمام الأمور، لكن تعرض هذا الأخير لمشاكل سياسية لم يكن لديه القوة و الكفاءة لمواجهةها، مما جعله يعرض أمر إحقاق الجزائر تحت راية الدولة العثمانية على العلماء و الفقهاء، فقبلوا بذلك مقابل مساعدات مالية و عسكرية للتخلص نهائيا من الإسبان و بقايا حكام الدولة الزبانية، و فعلا انضمت الجزائر رسميا تحت راية الدولة العثمانية في حدود سنة 924 هـ / 1518 م أي فترة السلطان "سليم الأول" (518 - 527 هـ / 1512 - 1520 م) وعين "خير الدين" حاكما لها³، و اتخذ مدينة الجزائر عاصمة له و لقب ب "بايلرباي" أي أمير الأمراء استنادا إلى الفرمان الذي أصدره السلطان العثماني "سليم الأول" كما تلقوا المساعدات التي كانوا بحاجة إليها و ظلوا يتلقوها باعتبار الجزائر المركز الإسلامي الذي يجسد ثغر المغرب الإسلامي في مواجهة أوروبا المسيحية، فمنحت الاستقلال السياسي في تسيير شؤونها الداخلية و الخارجية، حيث أعطيت

شارل اندي جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب: محمد مزالي و البشير سلامة، ج 1، بيروت 1989، ص 35.¹

Edition Mimouni ,Alger Gaid (m) , l'Algérie sous les turcs, 1974,p34.²

شوفالييه كورين، المرجع السابق، ص 37.³

لها كل الصلاحيات في توقيع المعاهدات و الاتفاقيات دون الرجوع إلى الباب العالي ما جعل الدول الأوروبية تتعامل معها باعتبارها دولة مكتملة السيادة¹. سميت الجزائر بعدة أسماء فأطلقوا عليها اسم "دار الجهاد" و في بعض الأحيان "المحرسة" وكان لهذا الاسم معنى في تطور عمران المدينة نحو الدفاع والتحصين ضد الغارات المسيحية التي ما فتئت تهاجم من حين لآخر مدينة الجزائر، فلذلك كثرت الأبراج وزيد في تشديد أسوارها، وتمتد قوتها الدفاعية بصفة عامة، إلى أن أصبحت قلعة منيعة ترتعد لها العصبية المسيحية ومن تابعها، ما يميزها أنها كانت تظهر من بعيد على شكل مثلث وخاصة من جهة البحر كأنه ثوب أبيض منشور على سفح جبل.² (الصورة رقم 01)



الصورة رقم 01: منظر لمدينة الجزائر (عن جيغالد فان كرول)

¹ ناصر الدين سعيدوني و المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، ج 4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 15.
 عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل 1830، ط 1، دار الفكر الإسلامي، الجزائر 1972، ص 132.²

مر الحكم العثماني بالجزائر على عدة أنظمة سياسية و فترات تاريخية، أولها فترة حكم "البيلرباي"¹، و هو الحكم الذي تقلده "خير الدين" و بتعيينه أصبحت الجزائر إحدى الولايات التابعة رسميا للإمبراطورية العثمانية، وأصبح لبيلرباي الجزائر بمقتضى هذا التعيين حق التصرف المطلق في الجزائر مع الإشراف على إقليمي تونس و طرابلس كما ذكرنا سابقا و تلاه عدد من الحكام الذين جاؤو من بعده في الفترة الممتدة ما بين (964-997هـ / 1518-1588م)، كان السلطان العثماني يعينهم لفترة غير محدودة بزمان و يختارهم غالبا من أكفاء الرجال الذين عملوا في الجزائر، و غالبا ما كان بايلربايات الجزائر يرشحون لاستلام البحرية العثمانية وقيادة الأسطول العثماني أي بمنصب قبودان باشا و هو لقب عثماني .

بعدها تأتي مرحلة "الباشاوات" في الفترة ما بين (997-1080هـ/1588-1659م) و التي حددت مدة حكم كل واحد بثلاث سنوات، عرفت فيه البلاد نشاطا ملحوظا و تبادلات تجارية بين الدول الأوروبية²، تليها فترة حكم الأغوات (1070-1082هـ/ 1659-1671م) و التي عرفت فيها الجزائر اضطرابا في نظام الحكم و فوضى في شؤون الإدارة، أما الفترة الأخيرة فهي فترة حكم الدايات الطويلة التي استمرت بدون انقطاع (1083 - 1246هـ/ 1671-1830م) عرفت فيها الجزائر مراحل مزدهرة و هي الفترة التي ظهر فيها لقب الباي و الدايا³، كما قسمت البلاد إلى أربع أقسام تمثلت في :

1- دار السلطان: كانت تحت حكم الدايا ، ضمت مدينة الجزائر و ضواحيها.

¹ احمد السليماني، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، دار دحلب للطباعة و النشر، الجزائر ص، 10. انظر أيضا: بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، الجزائر 1999، ص 261.

² ناصر الدين سعيدي و البوعبدلي، المرجع السابق، ص 14.

³ نفسه، ص 16.

2- بايلك الغرب: كانت عاصمته مازونة ثم معسكر و أخيرا وهران بعد جلاء الإسبان منها عام 1792م.

3- بايلك التيطري: ضم المناطق الوسطى و مناطق جنوب دار السلطان ، كانت عاصمته المدية.

4- بايلك الشرق: كانت عاصمته قسنطينة¹.

كما عرفت الجزائر طيلة الحكم العثماني وضع اجتماعيا متميزا اثر في نمط معيشة السكان و أسلوب حياتهم ، و جعل من مدينة الجزائر مركز استقطاب² فضمت أصحاب الحرف و الصنائع³، من أهم هذه المجموعات جماعة الحضر و الأندلسيين و الأتراك، بالإضافة إلى وجود بعض العناصر الأخرى الغير الإسلامية مثل النصارى و اليهود⁴ ، ساهمت هذه الأخيرة في ازدهار النشاط الاقتصادي و الاجتماعي.

4- النشاط الاقتصادي خلال العهد العثماني

عرفت الجزائر نشاطا اقتصاديا متطورا و ملحوظا في مختلف المجالات ، كما شهدت حركة مهنية شملت أغلب الحرف و المهن ، فكثر الإنتاج الفلاحي و تعدد المصنوعات و نشطت التجارة ، فكانت لكل حرفة شارع أو سوق مخصص لهذه الأخيرة موزعة حسب طبيعة الحرفة ، من أهم الشوارع و الأسواق التي تركزت بها

نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، الجزائر 2007، ص 104.¹

² وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة: زبدية عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1980، ص 89.

Renaudot (M), Tableau du royaume de la ville d'Alger, Paris, 1830, pp : 23-24.³

أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1980، ص 142.⁴

الحرف و التجارة بمدينة الجزائر هي سوق الحرارين و سوق الخام الموجودين بباب الدزيرة ، و من الناحية الشمالية يتركز سوق الخياطون و الطرازون .
في الحافة الشمالية توجد زنقة الرصايفية و زنقة البشماقجية و زنقة النحاسين يقومون بصناعة الصينيات و الأباريق و مختلف الأواني النحاسية ، و تنتهي هذه الزنقة بزققة الصباغين و الدباغين، يقابل باب البحر سوق الجقماقجية المختصين في صناعة الأسلحة و إصلاحها عند الكسر، إضافة إلى سوق الكتان و العطارين و البحارين و الحدادين و الفخاريين، كانت لهذه الحرف مقرات على شكل ورشات يقومون بالعمل فيها متكونة في غالب الأحيان من طابقين، السفلي مخصص لعرض المنتجات للعايرين أما الطابق الأعلى فهو مكان إقامة الصناع.

ما ساعد على هذا تطور الاقتصادي و الازدهار العمراني هو قدوم أعداد كبيرة من المهاجرين الأندلسيين¹ ، الذين استقروا بالجهات الساحلية فاستصلحوا الأراضي و عمروا المدن حتى أصبحت فحوص مدينة دلس و تنس و شرشال، و قليعة و بليدة ، عنابة ، وهران، تلمسان ، مستغانم و قلعة بني راشد تشتهر بإنتاجها الوفير من الخضر و الفواكه ، و أصبحت بعض المدن كالجزائر و قسنطينة و تلمسان تعج بالصنائع و الحرفيين الذين كانوا يزاولون مختلف المهن و الصناعات في ورشاتهم ، من أهم هذه المهن: الحدادة و الخياطة و النجارة ، الجلد و الحرير، و صناعة الأسلحة و تصليحها فأظهروا مهارة و إتقان في كثير من الصنائع التي تطورت على أيديهم و ساعدت على تحسين الإنتاج، فأصبحت تقوم بتصدير بعض المنتجات إلى الدول المجاورة، فتجمع لدى حكام الجزائر وكبار التجار ثروة ضخمة ينفقون منها على مختلف شؤون البلاد الاجتماعية والعسكرية خاصة بعد إنشاء الأسطول البحري ، فضلا عن الجهاد البحري كونه دفاعا عن النفس و الوطن كان أيضا موردا اقتصاديا

Nadir Assari, Alger des origines a la régence turque, édition alpha, Alger 2007, p 58.¹

هاما مصدره غنائم الجهاد البحري المتمثلة في الهدايا و الإتاوات التي تدفعها الدول الأوروبية مقابل السماح لها بالتجارة مع الجزائر، و التمتع بالحماية في مياه البحر المتوسط و عدم التعرض لها، و الحصول على تخفيضات جمركية و من بين هذه الدول نجد :

- الولايات المتحدة تدفع ضريبة على شكل مواد من بينها البارود (الوثيقة رقم 01).

- الدانمارك ، تدفع ضرائب أخرى في شكل أسلحة و حبال و صواري و ذخيرة البارود و رصاص و الحديد تقدر قيمتها بمبلغ 25 ألف فرنك. (الوثيقة رقم 02 و 03)

- السويد، تدفع ضرائب أخرى في شكل أسلحة و حبال و صواري و ذخيرة البارود و الرصاص ، الحديد و النحاس. (الوثيقة رقم 04)

- إسبانيا و فرنسا و إنجلترا و سردينيا و البندقية تدفع هدايا دورية للدايات و الباشاوات و أعضاء الديوان عند إبرام المعاهدات و تعيين القناصل لها بالجزائر.

- النمسا تدفع هدايا دورية مباشرة و عن طريق الدولة العثمانية، أما إنجلترا فتدفع 600 جنيه إسترليني كلما جددت قنصلها - هولندا تدفع نفس مبلغ إنجلترا¹

لكن هذه الأوضاع لم تدم طويلا ففي أواخر القرن 12/هـ 18م بدأت الأمور تتجه إلى التدهور و السبب يرجع إلى ضعف البحرية ، و انتشار الفوضى و تفشي الأوبئة و الأمراض مما أدى إلى قلة المنتوج و انخفاض مستوى المعيشة.

قائمة المصادر و المراجع:

أ-المصادر :

1- الوثائق الارشيفية

ناصر الدين سعيدوني و الشيخ البوعبدلي، المرجع السابق، ص 30. ¹

- 2- عبد الرّحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مج6، بيروت، 1992.
- 3- عبيد الله البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، المأخوذ من كتاب المسالك والممالك، عمان، 1911.
- 4- محمد العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق: احمد بن جدو ، مطبعة البعث ، الجزائر 1974.
- 5- حسن الوزان ، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية: محمد دحي و محمد الأخضر، ج1، ط2 ، بيروت 1983 .
- ب- المراجع:
- 1- إبراهيم بك حلیم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، المعروف بكتاب "التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية"، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 1988.
- 2- احمد السليمانی، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، دار دحلب للطباعة و النشر، الجزائر.
- 3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1980
- 4- بسام العسيلي ، خير الدين بربروس و الجهاد في البحر (1470-1547م)، ط1، دار النفائس، بيروت 1980.
- 5- بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، الجزائر 1999
- 6- خليل اينالجيک ، تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار، ترجمة: محمد الارناؤوط ، ط2، دار المدار الإسلامي، بيروت 2002
- 7- شارل اندي جوليان ، تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب: محمد مزالي و البشير سلامة، ج 1، بيروت 1989

- 8- ناصر الدين سعيدوني و المهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، ج 4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.
- 9- نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، الجزائر 2007.
- 10- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: دكتور إحسان حقي، ط1، دار النفائس، بيروت 1981
- 11- عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، دار الثقافة 1984
- 12- عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفتري عليها، ج1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1980
- 13- عزيز سامح ألتز، الأتراك العثمانيين في إفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، ط1، دار النهضة العربية، بيروت 1989
- 14- عبد القادر حلومي، مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل 1830، ط1، دار الفكر الإسلامي، الجزائر 1972
- 15- زياد أبو غنيم، جوانب مضيئة من تاريخ العثمانيين الأتراك، ط1، دار الفرقان للنشر و التوزيع، عمان 1983
- 16- كوين شوفالييه ، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر (1510-1541م)، ترجمة: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 17- وليم سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة: زبادة عبد القادر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1980.
- ج- المجلات :

- 1- رايح بونار ، " مدينة الجزائر تاريخها وحياتها الثقافية " ، مجلة الأصالة، العدد8، الجزائر 1972

د- المؤتمرات :

1- عبد العزيز لعرج، مظاهر التأثير العثماني على المنتجات الفنية بالجزائر، المؤتمر الخامس لجمعية الآثاريين العرب، القاهرة 2002

2- المصادر و المراجع باللغة الفرنسية:

.Shaw(T.), Voyage dans la régence d'Alger, Paris 1-
De Grammont, histoire d'Alger sous la domination 2-
turque (1515-1830), Ernest les roux éditeur ,paris
1887.

Gaid (m) , l'Algérie sous les turcs, Edition 3-
Mimouni ,Alger 1974.

Renaudot (M), Tableau du royaume de la ville 4-
d'Alger, Paris, 1830.

Nadir Assari, Alger des origines a la régence turque, 5-
édition alpha, Alger 2007.